المحاضرة الثالثة : الفصل الثاني/ عهد الأمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) لمالك الأشتر

الجزء الأول

يعدّ عهد الأمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) لعامله على مصر مالك بن الحارث الأشتر، وثيقة مهمة في الدين وأمور الحياة بجوانبها المختلفة .ويعدّ هذا الرجل من الرجال اللامعين المخلصين لله ورسوله ولأمير المؤمنين والمعروفين بتفانيهم وولائهم لدين الله تعالى ، والذبّ عنه ، والعمل الخالص لوجهه الكريم ، وهو من القادة الأوائل الذين أخلصوا ولازموا أمير المؤمنين الأمام (علي عليه السلام) ، وقد عرفه الأمام بذلك واعتمد عليه في أعماله ، وقد اثبت ذلك قولا وعملا ، فجعله واليا على مصر ، وحاكما على أهلها ، لذا فقد عهد اليه (عليه السلام) ذلك العهد المشهور الذي هو من أطول العهود ومن أهمها ، لأنه يكشف العقلية الفذّة التي يملكها الأمام في إدارة الأمور ، فضلا عن القضايا القانونية والشمولية والإنسانية التي طبقت بنود العهد .

ان هذا العهد وثيقة إسلامية رائعة في أهم القطاعات الحياتية التي هي إدارة الدولة ، ومن هنا فان دراسته وتفكيك نصوصه هي محاولة لفهم الحكم والإدارة في نظر الأمام علي (عليه السلام) الذي يرجع إلى نظر الإسلام ، وهذه مسألة في غاية الأهمية ، وهو كذلك وثيقة قانونية تعالج واجبات الحاكم ووظائفه ، والعلاقات بين الشعب وبين الحاكم . وقد تضمّن وصايا مهمة وعديدة يجب أن يتحلى بها الحاكم والوالي الذي يقود رعيته ، ويجب أن تكون منهاج عمل يسير عليها ، وهي رؤى عميقة في مجالات الحياة كافة اذا ما سار عليها فانه يوفق إلى مبتغاه ، وهو تحقيق سعادة الناس وضمان حقوقهم ، وأولى هذه الوصايا التي بدأها الأمام لواليه هي الالتزام بتقوى الله وأطاعته والسير على حكم القرآن الكريم ، وسنّة رسوله العظيم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وهذه التقوى هي الحصانة النفسية للحاكم ، اذ ان أعمال الحاكم لا يمكن أن تبقى خافية بل تظهر وتكون متداولة بين الناس ، ومن ثم يعرف الحاكم الصالح من خلال أثره في نفوس الرعيّة ، ممّا يجعلهم متعلقين فيه.

نصّ العهد الشريف

((هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين ، مالك بن الحارث الأشتر في عهده اليه ، حين ولاّه مصر ، جباية خراجها ، وجهاد عدّها ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها .

أمره بتقوى الله ، وإيثار طاعته ، واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد ألا باتباعها ، ولا يشقى ألا مع جحودها وأضاعتها ، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه ، فانه جلّ اسمه قد تكفل بنصر من نصره ، واعزاز من أعزّه ، وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات، ويزعها عند الجمحات ، فان النفس لا مّارة بالسوء ألا ما رحم الله ...)) .

ابتدأ النص الشريف بالإشارة والإحالة إلى ما سيعهده (عليه السلام)اذ جاءت تلك الإشارةواضحة وصريحة منه حينما ساق (عليه السلام) الكلام بيّنا واضحا " محددا" جهة انطلاق هذا العهد إلى الجهة المرسل اليها ، وهو من أعلى سلطة إلى جهة أدنى ، من أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى عامله مالك الأشتر (رضي الله عنه) ، وهذا ما كان معتادا" في كتبه ورسائله ، وعهوده التي يوجهها ، وهو أسلوب متميز يكشف عن بيان صاحبه ووضوحه ، وليكون أثبت في نفس المتلقي المأمور به .

لقد جاء المفتتح بلفظ الأمر في عبارة (هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين ..) ليكون فيه الزام وتشديد وتأكيد على المأمور بما سيعهده اليه ، وما سيفرغه من فكره النيرّ كي يصير منهاجا" يسير عليه ، وسيحقق نجاحا" اذا ما تمسك به ثقة منه بتدبير إدارة البلد ، اعتمادا على الله سبحانه، وثقة منه بسداد ذلك .

يلحظ تلّون الأسلوب الأمري للنصّ الشريف ، فقد جاء بواسطة الفعل الماضي (ما أمربه) ، وهو في أول كتابة عهده له ، وفي بداية تولية مالك فماذا وراء ذلك من دلالة الماضي مع الطلب ، فيمكن أن نفسرّ ذلك أن الفعل الماضي قد جاء هنا في سياق حكم الفعل الواقع المنقضي المتحقق الوقوع،دلالة على التأكيد للمأمور كي يشعره بوقوعه حتما والقضاء، لان الحاكم والوالي بيده السلطة العليا، ولاسيما مثل أمير المؤمنين (عليه السلام) ، لا يمكن أن يترك الأمور تسير من تلقائها من دون أن

يوجهها الوجهة الصحيحة ، اذ لابدّ أن يقدم ما يصلح هذه الأمة ، وما يناسب شأن الرعيّة ، لأنه هو المسؤول الأول عنها ، لذا فان الماضي في حكم الفعل المتحقق الوقوع .

نجد كذلك أن أسلوب الطلب قد جاء في مفتتح العهد بصيغة الخبر الذي أريد منه الأمر ، كما في قوله ، هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين .. حين ولاّه مصر ، جباية خراجها ، وجهاد عدّها واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها.) يلحظ أن هذا أسلوب أخباري، ولكن جاء دالاعلى الطلب ، وهو لم يكن أمرا" مباشرا" ، وهذا أسلوب بلاغي ، وفن تعبيري عرفته البلاغة والفصاحة ، وذلك لأنه سعة للتأويل والتدبّر ، لما فيه من العموم والاتساع في الأفكار، فهو لم يطلب منه فيقول له مثلا (اجب خراجها ، وجاهد عدّها، واستصلح أهلها ..) ، وهو فن قد عرفه أهل البيان والبلاغة تمثّل بالعدول من الأمرالى الأخبار ، فلعل في ذلك تفسيرا لأسلوب الخفّة في الأمر والتهذيب في الكلام ، ليكون الأمر أخفّ وطأة ، وأقرب ما تكون اليه نفس المتلقي بالقبول والرضا ، وينسحب هذا الأمر غير المباشر على الإحالات بواسطة ضمير الغائب في قوله (عليه السلام) :

(في عهده آليه حين ولاّه مصر ... أمره بتقوى الله .. وأن ينصر الله سبحانه .. وأمره أن يكسر نفسه ويزعها عند الجمحات ..) . فقد مال إلى استعمال ضمير الغائب ، وعدل عن ضمير الخطاب ، لما الأول من الإبهام والعموم ، ولما فيه من إيهام وإبهام اكثر من ضمير الخطاب لما فيه من المباشرة والفرض والقوة في جهة الكلام ، ولعل شيوع الضمير الغائب يحقق في النص تشوّقا" لمعرفة هذا المأمور وأحواله .

يتضمن هذا الافتتاح وصفا" وترغيبا" للمأمور ، ويعدّ تهيئة لما سيأتي من كلام ، ويلمح فيه استدراج لمتلقي الخطاب ، والعمل على أقناعه بالقبول والرضا ، ويمثل النص الشريف صفات الحاكم التي يجب أن يتحلى بها في نظر أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وأولى هذه الخصال والمزايا هي تقوى الله طاعته ، والورع ، والعمل الصالح ، وهذا رأس الحكمة ،وهو ما يؤكد عليه أمير المؤمنين في خطبه ، ومن سار على ذلك فقد صلحت سيرته ونجح في أعماله ، وهذا ما أكده في قوله (عليه السلام) :(لا يسعد أحد ألا باتباعها ، ولا يشقى ألا مع جحودها وإضاعتها).

وفي هذا ترغيب من خلال استعمال العبارات المتضادة ، وأفادتها للتنبيه على الحسن ، ودرع القبيح كما في قوله (عليه السلام) :(لا يسعد أحد ألا باتباعها ، ولا يشقى ألا مع جحودها) والتأكيد عليها بواسطة (ألا) التي تفيد الحصر والتأكيد ، ويعد هذا التركيب تفسيرا" لما تقدم من الكلام في قوله(عليه السلام) : ((وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه))، ان الأمام (عليه السلام)يعلم صدق أصحابه الخلصّ وتفانيهم من أجل الإسلام ، ولكنه أراد أن يكون هذا عهدا ووثيقة ومنهاجا لمالك ولغيره من الناس ، وقد حدد هذا النصر في أبعاد ثلاثة ، وهي القلب ، واليد واللسان ، مبتدأ بالقلب لانّ القلب موضع الأيمان والتصديق ومن أشرب قلبه الأيمان فقد استطاع أن ينصر الإسلام ، ويدافع عنه بيده وهو الجهاد الفعلي ، ويقف إلى جانب ذلك اللسان الذي يقدم به النصح والإرشاد ، والحجج الواضحة ، وهو مهم في الدفاع عن الإسلام ، ومعنى أن ينصر الله هو نصر الدين الحنيف ، ثمّ جاء التعبير بالإخبار والتوضيح بمجازاة من ينصر الله ودينه بقوله (عليه السلام) : (فانه مما جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره وإعزاز من أعزّه). وهذا مؤكد من قوله تعالى:((ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)).

بعد هذه المقدمة التي تعدّ بمثابة التمهيد والتهيئة لمضمون وصايا الإمام (عليه السلام) التي تصف الحاكم وتقواه ، ونزاهته وإيمانه وعدله وورعه ، ومن تخلق بهذه الأخلاق ، فقد كان صالحا" للقيادة والزعامة للجماعة ، فيكون مقدما مقبولا" من تلك الجماعة .

ثم يأتي أمره (عليه السلام) غير المباشر من خلال ورود ضمير الغيبة التي تعود على (مالك) (رضوان الله عليه) ، بقوله (عليه السلام)، وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات ، ويزعها عن الجمحات ، فان النفس لا مارة بالسوء إلا ما رحم الله) .

ترتفع قيمة النصّ بما يتضمن من صور بيانية تتمثل بالصورة الاستعارية في عبارة (أن يكسر نفسه من الشهوات ، لان اتباع الإنسان شهواته وأهواءه ورغباته يعود بالضرر عليها ، وعلى المجتمع ،ولأن تعوّد النفس على ذلك لهو انفلات وخروج عن الجادة ، ومن ثم يؤدي إلى عدم السيطرة عليها ، وقد حذّر (عليه السلام) من ذلك ، لأن الدنيا دار غرور تغرّ من ركن اليها ، ولذلك قال عنها (عليه السلام) في موضع اخر :(يادنيا غري غيري ، فقد طلقت بالثلاث لا رجعة لك. وعبارة ويزعها عند الجمحات) جاءت الاشارة بالضمير إلى النفس والمأمور بذلك هو (مالك) (رضي الله عنه) ، أي يأمره أن يكفّ نفسه أو يمسكها عن الجمحات ، وهي منازعات النفس إلى شهواتها ومآربها .